الفصل الأول

العرب والبحر

تمثل علاقة العرب بالبحر ، منذ ما قبل الميلاد وجهاً بارزًا من وجوه الحضارة العربية . فعبر البحر نقل العرب تجارتهم وتجارة العالم ، ثم نقلوا دينهم ولغتهم وثقافتهم وإنجازاتهم البحرية وإضافاتهم الحضارية إلى تراث الإنسانية وحضارتها . وعبر البحر أيضاً تلقى العرب علوم العالم وثقافاته ، واستوعبوها ، وصححوها ، وأضافوا إليها من ثمار الحضارة العربية ما أثرى الحضارة الإنسانية ، وقاد الغرب وكشوفه البحرية إلى آفاق جديدة للإنسانية . وامتد نشاط العرب البحرى إلى شواطئ الصين وكوريا شرقًا وإلى سواحل أوروبًا الجنوبية والجزر البريطانية وأيسلندا غربًا . « كما لم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان » . كما يقول المستشرق الروسى كراتشكوفسكى [1] ، فلم تكن لدى اليونان « أية فكرة عن الساحل الشرقى لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية » . فى حين عرف العرب سواحل آسيا إلى كوريا الشمالية .

ومع هذا تزعم بعض الأخطاء الشائعة بأن العرب القدماء هم أبناء الصحراء ، وأن الصحراء هى عالمهم الوحيد الذى لم يتعدوه إلى عالم البحر ، وأنهم ركبوا الإبل والخيل ولم يركبوا السفن . غير أن هذا كله يغاير الحقائق الخارجية والجغرافية والأدبية الثابتة فى هذا الموضوع . فقد عرف عرب الجنوب والخليج البحر وركبوا السفن وعبروا البحر الأحمر إلى الساحل الشرقى الأفريقى ، وأقاموا عليه المراكز التجارية الثابتة ، وعبرت سفنهم المحيط الهندى ونقلوا تجارة الهند وصنعوا سفنهم من أخشابها .

وقد لعب الموقع الجغرافى للجزيرة العربية ، فى قلب العالم القديم وعلى طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، دورًا كبيرًا فى قيام العرب بدور الوسيط التجارى ، فقاموا بأعمال النقل والتبادل للتجارة العالمية عبر البحر قبل ظهور الإسلام بزمن طويل .

(١) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، حـ ١ ص ٢٢ و ٢٣ .

لقد نشأ العرب وعاشوا فى شبه جزيرة تحيط بها مياه البحار من ثلاثة جوانب ، جنوبًا وشرقاً وغربًا . فكان طبيعيًا أن يعرفوا البحر وجماله وتقلباته وسفنه . ولما كانوا رواد تجارة أيضاً وكانت بلادهم معبرًا للتجارة العالمية ، فقد نقلوا هذه التجارة عبر الطرق البحرية والبرية أيضاً . فكانت قوافل التجارة تأتى من الجنوب إلى الشمال . وكان عرب الشمال وخاصة أهل مكة ، يقودون حركة التجارة البرية القادمة من اليمن جنوبًا إلى الشام شمالا . وفى منتصف الساحل العربى المطل على البحر الأحمر ، أقام حواتون عرب من صيادى الحيتان ، النواة الأولى لمدينة جدة الساحلية و « اتخذوا العرائش مساكن متواضعة لهم ، ليأوا إليها بعد رحلاتهم الصيدية فى عرض البحر » . بل استقر قضاعة الابن الثانى لمعد بن عدنان ، أحد أجداد محمد رسول الله ﷺ ، فى جدة وسميت باسم أحد أبنائهم وهو « جدة بن جرم بن ريان » وكان هذا قبل الإسلام بنحو خمسة قرون[٢] . فى حين نقل عرب الجنوب ، من سكان اليمن وحضرموت والخليج عامة ، تجارة الهند وأفريقيا عبر المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى إلى الشام والعراق ومصر .

ولم يكن عرب الجنوب تجاراً فحسب ، بل كانوا ملاحين مهرة . فالتجار العرب الذين تمرسوا بالاتصال التجارى عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى ، كان يقود سفنهم ملاحون عرب من حضرموت وعمان وعدن والشحر وغيرها من المدن الساحلية العربية فى الجنوب . وقام العرب فى جنوب الجزيرة العربية بأعمال التبادل التجارى عبر البحر الأحمر من الخليج واليمن إلى الساحل الشرقى لأفريقيا ، حيث أقاموا المراكز التجارية على هذا الساحل ونقلوا منها تجارة أفريقيا ، من الذهب والعاج والرقيق فوق السفن العربية ، وتبادلوها بالسلع العربية والرومانية والفارسية . وكانت هذه الرحلات التجارية البحرية منتظمة ، تؤكدها سيطرتهم على بعض مراسى وموانئ الساحل الأفريقى ، وتمرسهم بصناعة السفن ومعرفتهم للطرق البحرية والرياح الموسمية .

وفى هذه الحقبة التاريخية القديمة من تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، عرفوا الرياح الموسمية فى المحيط الهندى ، التى مكنت سفنهم الشراعية الصغيرة « المعروفة باسم (الدو) من القيام برحلتين منتظمتين فى السنة بأقل مجهود . ففى فصل الخريف تدفعها الرياح فى اتجاه معاكس يمكن السفن من العودة إلى قواعدها فى سواحل الجزيرة العربية ، وفى خلال دورة

---

(٢) عبد القدوس الأنصارى ، جدة – مدينة وتاريخ ، مجلة الفيصل العدد (١٨) نوفمبر ١٩٧٨ (ص ٣٩ – ٥٧) .

الرياح هذه كان يتم التعامل التجارى »[٣] . ويقول الدكتور حسين فوزى ، فى كتابه « حديث السندباد القديم » ، إن هذا الاكتشاف العربى للرياح الموسمية ظل العرب يستخدمونه فى رحلاتهم البحرية التجارية بالمحيط الهندى ، منذ أقدم العصور ، فى حين « كانت السفن الأجنبية تلتزم الملاحة الشاطئية فى بحر الهند »[٤] لعدم اكتشافها لسر الملاحة الموسمية ، التى عرفها ملاحو العرب وظلت سرا حتى عرفها الملاح اليونانى « هيالوس » فى القرن الأول الميلادى ، ومن ثم سجلها اليونانيون فى كتبهم عن الملاحة والتجارة فى المحيط الهندى .

وربط عرب الجاهلية أيضًا اتجاه الرياح بمطالع النجوم ومغيبها ، وعرفوا الأنواء قبل ظهور الإسلام بعدة قرون[٥] وقادتهم معرفتهم المبكرة بالنجوم والأبراج والفلك ، إلى الاسترشاد بالنجم « سهيل » فى رحلاتهم الجنوبية ، وأطلقوا على هذا النجم « النجم الثابت فى الجنوب » ، ثم عرف فيما بعد باسم « غيوم ماجلان » التى اهتدى بها ماجلان طوال رحلته حول العالم . ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوى ، فى كتابه « دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى » ، أن المستشرق المعروف « لويس ماسينيون » هو الذى أعلن فى آخر أبحاثه « عن اكتشاف العرب للغيوم التى اهتدى بها ماجلان فى رحلته حول العالم ، وهو أمر يشهد للعرب بالتقدم الهائل فى الملاحة البحرية فضلاً عن علم الفلك » . وأن « هذه الغيوم ، التى استهدى بها الملاحون العرب فى تجوالهم فى بحر العرب والمحيط الهندى ، هى التى اهتدى بها ماجلان ، فى عصر النهضة ، حين دخل المحيط الهادى ، ومكنته من إتمام دورة حول الأرض ، فى سنة ١٥٢٢ م . ومن الذين ذكروا غيوم ماجلان هذه : تميم الدارى (المتوفى سنة ٤٠ هـ) ، وابن وحشية (المتوفى سنة ٢٩١ هـ) وعبد الرحمن الصوفى فى (الكواكب المصورة) (المتوفى سنة ٣٧٦ هـ) . . »[٦] .

كما اخترع العرب الشراع المثلث للسفينة ، الذى مكن سفنهم من الإقلاع والسير فى الريح العاصفة واستخدموه فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، مما ساعد على ازدهار الملاحة فى البحار الجنوبية . « فبفضل هذا الشراع أصبح من الممكن السير والريح عاصفة (أولا بالإبحار

---

(٣) الدكتور جمال زكريا قاسم ، دور العرب فى كشف أفريقيا ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الأول - العدد الرابع .

(٤) الدكتور حسين فوزى ، حديث السندباد القديم ، ص ١٦ .

(٥) الدكتور أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ٣٦ .

(٦) الدكتور عبد الرحمن بدوى ، دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى ، ٢٢٨ .

فى مضادة الريح ومؤخر السفينة فى الريح ، ثم بالعدول ثانية)[٧] . وقد نسب الباحثون الأجانب للعرب فضل نقل هذا الشراع المثلث إلى البحر الأبيض المتوسط فى نهاية القرن التاسع الميلادى . « فالأهمية التاريخية لهذا الشراع تكمن فى تفوقه على الأشرعة المربعة التقليدية للبحر المتوسط فى توجيه السفينة ضد اتجاه الريح . ولقد كان تهجينه بعناصر أُخرى من التكنولوجية البحرية للبحر المتوسط ثم لشمال شرق الأطلسى يعتبر شرطًا ضروريًا لإمكانية القيام بالرحلات الاستكشافية التى جرت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر »[٨] .

هذه هى إنجازات العرب القدماء فى الملاحة البحرية ، الرياح الموسمية ، عيوم ماجلان ، الشراع المثلث ، وهى إبداعات وابتكارات شكلت إضافات هامة للحضارة البشرية ، وقادت الإنسانية إلى الاكتشافات البحرية الكبرى ، ووسعت من آفاق المعرفة . وإن سجل إنجازات العرب البحرية لحافل بالمزيد من الاختراعات والاكتشافات المعارف البحرية غير المسبوقة فى تاريخ البشر وجغرافيتهم وعلومهم . ويضاف إلى ذلك الفتوحات البحرية الإسلامية ، والأساطيل العربية الضخمة ، والمعارك البحرية ، والشخصيات البحرية الفذة من قادة وملاحين وعلماء ومكتشفين ومغامرين ، الذين يحفل بهم التراث العربى والتاريخ العربى بعد ظهور الإسلام .

وقد حفز الإسلام العرب لنشر دين الله ، فقامت الفتوحات الإسلامية الكبرى ، وحض الإسلام العرب على السفر والرحلات للحج ، وحثهم على طلب العلم ، ولو فى الصين ، ودعاهم إلى السير فى الأرض والتأمل والتفكير . فكان ذلك إيذاناً بانطلاق العرب فى العالم ناشرين الدين الإسلامى ، وطلباً للحج والتجارة والعلم ، وقد ساعدت رحلات العرب فى البحار الجنوبية ، وما أقاموه من مراكز تجارية على شواطئ البحار الجنوبية قبل الإسلام ، على التمهيد لانتشارهم الواسع السريع والمنظم ، بعد ظهور الإسلام ، فى تلك البحار وفى السواحل والدواخل الإفريقية والآسيوية المطلة على البحار الجنوبية والشرقية ، كما أفادتهم خبراتهم البحرية والملاحية فى الانطلاق إلى البحر الأبيض المتوسط والسواحل الأوربية .

فما أن استقر الإسلام فى الجزيرة العربية ودخل أهلها فى الدين الجديد فى السنة العاشرة

---

(٧) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

(٨) شاخت وبوزورث ، تراث الإسلام ، القسم الأول ، الفصل الخامس : « التطورات الاقتصادية » ، م . أ كوك ، ترجمة الدكتور محمد زهير السمهورى ، ص ٣٣٨ و ٣٣٩ .

الهجرية (٦٣٢م) ، حتى بدأ العرب إلى الخارج حاملين دينهم بشرى وهداية للعالم ، وتجاور الإقناع مع الحروب ، وهكذا بدأت الفتوحات الإسلامية برًّا وبحراً . ويعنينا هنا الجانب الخاص بالبحر . فقد كانت الفتوحات الإسلامية عبر البحر ميداناً لانتشار العرب فى البحار والمحيطات وإنشائهم الأساطيل الحربية والتجارية وازدهار الجاليات العربية فى الشواطئ الشرقية والغربية على السواء . « ولم يمض ستة عشر عاماً على الهجرة حتى نزل أسطول عمانى بمصبات نهر السند وشواطئ الهند وانتهى القرن السابع الميلادى وفى سيلان جالية إسلامية هامة »[٩] . فقد انتشر التجار العرب والرحالة العرب والبحارة العرب مع امتداد الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام . وقد لعب التجار العرب أدوارا عظيمة فى رحلاتهم بين الشرق إلى الغرب برًّا وبحراً ، يتبادلون التجارة وينقلونها من المغرب إلى الحجاز إلى الهند والصين ، ومن القسطنطينية إلى بغداد وعمان . كما ازدهر الأدب العربى القديم أيضاً ، نتيجة لعصر الفتوحات الإسلامية والحضارة الإسلامية التى أسهمت فى تشجيع الفتوحات والكشوف الجغرافية العربية .

وقد بدأ ميلاد أول أسطول عربى فى البحر الأبيض المتوسط فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان ذلك من متطلبات الفتوحات الإسلامية الجديدة لحماية شواطئ الشام ومصر . غير أن الانطلاق الحقيقى للأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط كان فى العهد الأموى . فإلى الأمويين يرجع الفضل فى انتشار الأساطيل العربية فى البحر المتوسط ، فقد كانت استراتيجيتهم ترمى إلى الامتداد عبر البحر وإقامة دولة إسلامية كبرى تمتد عبر البر والبحر . فكان لابد من إنشاء أسطول بحرى قوى يخوض البحار وينتصر على أساطيل الأعداء ، ويحقق الامتداد البحرى للدولة الإسلامية المنشودة .

وكانت المواجهة الأولى فى البحر الأبيض المتوسط بين العرب والبيزنطيين ، الذين كانت لهم السيطرة على ذلك البحر حتى ظهرت القوة البحرية العربية . ففتح العرب جزيرتى قبرص (سنة ٢٨ هـ) ورودس (سنة ٣٢ هـ) . غير أن المعركة البحرية الكبرى بين العرب والبيزنطيين نشبت سنة ٣٤ هجرية فوق مياه البحر المتوسط قرب الإسكندرية وعرفت بمعركة « ذات الصوارى » ، وقد سميت بهذا الاسم لكثرة الصوارى المرتفعة على سفن الأسطولين العربى والبيزنطى . وقاد الأسطول العربى عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر ، على حين قاد الأسطول البيزنطى الإمبراطور البيزنطى قسطنطين بن هرقل . وقد حقق العرب انتصاراً

(٩) الدكتور حسين فوزى ، حديث السندباد القديم ، ص ٢٠ .

حاسمًا فى هذه المعركة البحرية الكبرى ، مكنهم من الانتشار فى البحر الأبيض المتوسط وفتح جزره والإغارة على بعض مدنه الساحلية ، وبالجملة فرضوا وجودهم المؤثر فوق مياه البحر الأبيض المتوسط ، ولم يعد ذلك البحر حكرًا للبيزنطيين أو الروم ، بل ظل النزاع دائماً بينهم وبين العرب . وبالرغم من تلك المعارك البحرية ، فقد نقل العرب معهم الدين الإسلامى والثقافة العربية والفنون العربية وخبراتهم الحضارية إلى جزر وشواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة فى صقلية وكريت وبعض المدن الإيطالية الجنوبية المطلة على البحر المتوسط . وتغلغلت الحضارة العربية فى شبه جزيرة أيبريا ، الأندلس ، التى فتحها العرب (الأمويون) بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير واستقروا فيها طوال سبعة قرون . وفى البحر المتوسط انتشر الأسطول العربى للأمويين والأندلسيين الذى أنشأه عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس ، وكذلك الأسطول الفاطمى المنافس له .

وبالإضافة إلى معركة ذات الصوارى ، كشف الدكتور شوقى ضيف ، فى كتابه « البطولة فى الشعر العربى » عن قصيدة للبحترى من أدب البحر ، ذكرت معركة أخرى قامت بين الأسطول العربى (العباسى) بقيادة أحمد بن دينار والأسطول الرومى سنة ٢٣٢ هـ ، حقق فيها العرب انتصارًا حاسمًا أيضًا ودمروا الأسطول الرومى تدميراً تاما . ويقول الدكتور شوقى ضيف إن هذه المعركة البحرية الهامة لم تسجلها كتب التاريخ العربية « وإنما سجلها المؤرخون البيزنطيون ، وأن البحترى لخليق بالثناء حين سجل هذا المجد الحربى لابن دينار وأسطوله فى إحدى مدائحه له ، وقد صوره يتقدم الأسطول ذات صباح فى موكبة الميمون »[١٠] وهذه هى قصيدة البحترى التى تصور تلك المعركة البحرية ، نوردها كأنموذج لأدب البحر الحربى عند العرب ، وهو أدب حافل بالقصائد المماثلة المعبرة عن معارك العرب الحربية فى البحر ، نكتفى منه بقصيدة البحترى ، حتى لا يتشعب بنا الموضوع :

غدوت على الميمون صبحًا وإنما ... غدا الموكب الميمون تحت المظفَّر

إذا زجر النوتى فوق علاته ... رأيت خطيباً فى ذؤابة منبر

يغضون دون الاشتيام[١١] عيونهم ... وفوق السماط للعظيم المؤمَّر

(١٠) الدكتور شوقى ضيف ، البطولة فى الشعر العربى ، ص ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ .

(١١) القائد أو أمير البحر .

وحولك ركابون للهول عاقروا كئوس الردى من دار عين وحنَّرِ
إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع إلا عن شِواء مقسَّر
صدمت بهم صُهْبَ العثانين دونهم ضراب كإيقاد اللظى المتسعّر
يسوقون أسطولا كأن سفينه سحائب صيف من جَهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم إذ اختلفت ترجيع عَوْدٍ مُجَرجِرِ
تقارب من زحفهمُ فكأنما تؤلَّف من أعناق وحسن مِتَفَّرِ
فما رمت حتى أجلت الحرب عن طُلى مقطعة فيهم وهام مطيَّر
على حين لا نقْعٌ يطوِّحه الصبا ولا أرضُ تلفَى للصَّريع المقَطَّر

وتدلنا هذه القصيدة على أن الأساطيل العربية كان لها وجود مؤثر فى البحر الأبيض المتوسط ، فقد شق العرب مياهه بأساطيلهم وسفنهم وأقاموا على شواطئه الترسانات البحرية . وخاضوا الحروب الدينية لنشر الدين الإسلامى ، وشنوا نوعًا آخر من الحروب التأديبية ضد سفن القراصنة الغربيين الذين كانوا يهاجمون السفن التجارية العربية وينهبونها . وحين جاء القرن التاسع الميلادى كان العرب هم القوة المسيطرة فى البحر الأبيض وفتحوا جزره الكبرى مثل صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر الباليار حتى استولوا على معظم جزر البحر المتوسط . وقد أضافت خلافة قرطبة العربية فى الأندلس بترسانتها وأساطيلها المزيد من القوة البحرية العربية فى البحر المتوسط ، فاتفق اهتمامها بالبحر مع الخط الاستراتيجى للدولة الأموية فى الامتداد عبر البحر ، وإقامة دولة عربية إسلامية قوية تجمع بين الأرض والبحر ، وتسيطر على البحر المتوسط وشواطئه وجزره . غير أن هذا الخط الاستراتيجى البحرى انتهى بنهاية الدولة الأموية وسقوط خلافة قرطبة ، ومجىء الدولة العباسية ، التى استهدفت الامتداد الآسيوى واستبعدت الفتوحات البحرية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن اشتداد النزاع البحرى بين الأندلسيين والفاطميين أضعف الوجود العربى فوق مياه البحر المتوسط ، فى وقت كانت أوربا المسيحية تستيقظ وتنشئ الترسانات والأساطيل البحرية لترد على التحدى العربى القوى فى البحر المتوسط . غير أن سقوط خلافة قرطبة وتوزيعها بين ملوك الطوائف ، لم ينه الدور العربى فى البحر الأبيض ، إذ توزع أسطول قرطبة أيضاً على ممالك الأندلس فى أوائل القرن الخامس

الهجرى وأوائل القرن الحادى عشر الميلادى .

وفى هذه الحقبة سطع نجم قائد بحرى فذ وأديب ومثقف عربى هو مجاهد العامرى . ومن الغريب حقا أن هذا القائد البحرى الأديب المثقف لم يلق عناية تذكر فى الكتب العربية ، فى حين حظى باهتمام المؤرخين والمستشرقين والباحثين فى الغرب ، وخاصة فى إيطاليا ، التى عرفت نشاط أسطوله البحرى وغزواته لشواطئها وجزرها . غير أنهم اتهموه ظلمًا بالقرصنة ووصفوه بأنه قرصان مرعب ، وعدُّوا حملاته البحرية « حرب قرصنة مقدسة »[١٢] لأنهم خلطوا بين أعمال القرصنة البحرية التى كان القراصنة الغربيون يقومون بها فى البحر الأبيض المتوسط من أجل السلب والنهب ، وبين أعمال الفتح الإسلامى التى كانت تتم بغرض نشر الدين الإسلامى وفرض الحكم والعدالة العربية . فقد كان مجاهد العامرى رجل علم ودين حفظ القرآن كاملا بالقراءات السبع وعرف جيدًا علوم الدين والفقه ، وكان شاعرًا له ديوان من الشعر وكتاب فى علم العروض ، وناقدًا أدبيًا متذوقا للشعر . وكان له مجلسه الأدبى فى مملكته دانية ، ضم العلماء والأدباء والفنانين ، وقد تلقى ثقافته فى مكتبات قرطبة ، وتعلق بحب الكتب واللوحات والأعمال الفنية التى ملأت مكتبته وقصره ، وكان يشجع الأدباء والعلماء والفنانين ويغدق عليهم العطاء[١٣] ، مما ساعد على ازدهار الحياة الثقافية والأدبية فى دانية . فرجل على هذا المستوى من العلم والدين والثقافة والأدب لا يمكن أن يوصف بالقرصنة ، ولكنه كان فاتحاً إسلاميًا ومجاهدًا فى سبيل الله وداعية دين وثقافة ، وقائدًا بحريًا وحربيًا شجاعًا وفذًا ، فتح صفحات مشرقة فى كتاب العرب والبحر .

فقد استقل مجاهد العامرى (سنة ٤٠٢ هـ/١٠١١م) بمملكته « دانية » الأندلسية الإسلامية ، ذات الموقع البحرى الاستراتيجى والقلعة الحصينة المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، وعكف على إنشاء أسطول بحرى ضخم وجيش قوى . ومن ثم بدأ نشاطه الحربى البحرى (سنة ٤٠٥ هـ/١٠١٥م) بغزو جزر البليار واحتلال جزرها الثلاث الرئيسية « ميورقة » و « منورقة » و « يابسة » . وكان العرب قد فتحوها وغزوها أكثر من مرة منذ استقرارهم بالأندلس . وواصل مجاهد حملاته البحرية بأسطوله القوى الذى تجاوز المائة سفينة ، ففتح

---

(١٢) تراث الإسلام ، ص ١٣٢ .

(١٣) كليليا سارنللى تشركوا ، مجاهد العامرى - قائد الأسطول العربى فى غربى البحر المتوسط ، (ص ٢١٣ - ٢٢٠) .

جزيرة سردينيا بعد حرب بحرية ضارية أسر خلالها قائد السردينيين . وشملت عمليات الأسطول العربى بقيادة مجاهد غزو الشواطئ الإيطالية ، والمدن الساحلية الإيطالية لوقى وبيزا وجنوا فى حروب تمثلت فيها اليقظة المسيحية بقيادة البابا الذى جمع قوى أوربا المسيحية ، ودامت الحروب البحرية حتى سنة ١٠١٦ م . وفى هذه السنة وقعت المعركة الهائلة الفاصلة فى مياه سردينيا بين أسطولى بيزا وجنوا الضخمين وأسطول مجاهد العربى ، فى جو شديد العواصف والأعاصير ، فكانت السفن العربية تتحطم بين نار الأعداء وعنف العاصفة الهوجاء . وهكذا انتهت المعركة البرية لغير صالح العرب . غير أن العرب عادوا مرة أخرى لاحتلال سردينيا سنة ١٠٥٠م[١٤] ، بعد وفاة مجاهد بنحو خمس سنوات .

وغنى عن البيان مدى تأثير النشاط العربى فوق مياه البحر الأبيض المتوسط ، وعلى جزره وشواطئه ، فى الحضارة الغربية ، وهو تأثير حاسم أسهم فى تكوين تلك الحضارة وأثرى الحضارة الإنسانية كلها . فلم يكن النشاط البحرى للعرب حربيًا فحسب ، ولكنه كان دينيًا وتجاريًا وثقافيًا . وقد وصلت السفن التجارية إلى شواطئ بحر الشمال وبحر البلطيق ، وقامت العلاقات الدبلوماسية والإنسانية بين العرب ودول الشمال الأوربى . وحاول المغامرون من الشبان العرب استكشاف المحيط الأطلنطى والمياه الغربية وقاموا فى سبيل ذلك برحلات استكشافية بحرية جريئة ، تحدث عنها المؤرخ والرحالة والجغرافى العربى المسعودى فى كتابه الشهير « مروج الذهب ومعادن الجوهر » . وروى بعض الحكايات عن البحر المتوسط (بحر الروم) والمحيط الأطلنطى (بحر أوقيانوس) لعل أهمها رحلة الفتيان المغامرين . فقال المسعودى فى باب « ذكر بحر الروم ووصف ما قيل فى طوله وعرضه وابتدائه وانتهائه » :

« .. وعلى الحد بين البحرين – أعنى بحر الروم وبحر أوقيانوس – المنارة النحاس ، والحجارة التى بناها هرقل الجبار ، على أعلاها الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديها أن لا طريق ورائى لجميع الداخلين إلى ذلك البحر (بحر الروم) ، إذ كان بحرًا لا تجرى فيه جارية ، ولا عمارة فيه ، ولا حيوان ناطق يسكنه ، ولا يحاط بمقداره ، ولا تدرى غايته ، ولا يعلم منتهاه . وهو بحر الظلمات والأخضر والمحيط . وقد قيل إن المنارة على غير هذا الزقاق ، بل فى جزيرة من جزائر بحر أوقيانوس المحيط وسواحله . وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار . وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها فى كتابنا (أخبار الزمان) فى أخبار من غامر

(١٤) المرجع السابق ، ص ١٨٧ و ١٩٨ و ٢٠٤ .

وخاطر بنفسه فى ركوبه . ومن نجا منهم . ومن تلف ، وما شاهدوا منه ، وما رأوا . وأن منهم رجلا من أهل الأندلس يقال له خشخاش ، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها ، فجمع جماعة من أحداثها وركب بهم فى مراكب أعدها فى هذا البحر المحيط . فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة . وخبره مشهور عند أهل الأندلس »[١٥] .

ورأى المستشرق الروسى « أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى » فى هذه المغامرة ، وفى غيرها من روايات المغامرين العرب فى البحار الغربية ، دليلا على أن عرب المغرب قاموا برحلات استكشاف ومغامرة فى البحار الغربية والمحيط الأطلنطى ، مثلهم فى ذلك مثل إخوتهم من عرب المشرق ، فى رحلاتهم البحرية فى البحار الجنوبية . ثم يروى كراتشكوفسكى ، نقلا عن الإدريسى ، قصة مغامرة أخرى ، بدأت من لشبونة وقام بها ثمانية شبان أبناء عمومة لقبوا بالمغرورين ، أى المخاطرين ، « وجوهرها أن ثمانية إخوة عزموا على ركوب بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه ، فأبحروا مع الريح الشرقية مدة أحد عشر يومًا إلى موضع صخرى مخيف شديد الظلمة . ثم اتجهوا جنوباً مدة اثنى عشر يومًا إلى أن بلغوا (جزيرة الغَنَم) فأبصروا قطعانًا منها ، ثم توغلوا اثنى عشر يومًا أخرى فى نفس الاتجاه حتى بلغوا جزيرة أخرى فأسرهم أهلها وكانوا ذوى بشرة حمراء وشعرهم قليل ناعم وطوال القامة . وعندما بدأ هبوب الريح الغربية أمر سيد الجزيرة بترحيلهم معصوبى الأعين إلى القارة التى بلغوها بعد إبحار ثلاثة أيام بلياليها . وهناك علموا من البربر أنهم بجنوب مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم . وكان موضع نزولهم البقعة التى قامت بها فيما بعد ميناء آسفى » . ويرجح كراتشكوفسكى أن زمن الرحلة الأولى التى رواها المسعودى هو القرن التاسع الميلادى ، وأن زمن الرحلة الثانية هو القرن العاشر ، ويذكر أيضاً أن المتخصصين فى جغرافية العصور الوسطى يعتقدون بأن الرحلة الثانية ، ربما ساهمت فى الحث على الرحلات المتأخرة التى قام بها الملاحون الأوربيون فى المحيط الأطلنطى[١٦] . هكذا سبق العرب إلى المغامرة فى خوض مياه المحيط الأطلنطى العالية المجهولة ، فكانوا القدوة والطلائع للكشوف الأوربية التالية لهم .

هذه بإيجاز شديد ، أهم ملامح انطلاق العرب فى البحار الغربية ، البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، أما البحار الجنوبية ، الخليج العربى والبحر الأحمر والمحيط الهندى والمحيط

---

(١٥) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، حـ ١ ، ص ٩٠ و ٩١ .

(١٦) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، حـ ١ ، ص ١٣٦ و ١٣٧ .

الهادى ، فهى المجال التقليدى للملاحة العربية ، منذ البدايات التجارية والملاحية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وحتى العصر العباسى ، العصر الذهبى للدولة الإسلامية فى آسيا والشواطئ والجزر والبحار الجنوبية . وكان التجار العرب والملاحون العرب قد مهدوا الطريق لانطلاق العرب بعد الإسلام فى البحار الجنوبية والشواطئ والجزر الإفريقية والآسيوية . لذلك كان انتشار الإسلام السريع عبر العلاقات الإنسانية والتجارية معززا لوجود الجاليات العربية والأساطيل العربية . فعبر العرب البحر الأحمر وانطلقوا من المراكز العربية على الشاطئ وتغلغلوا داخل القارة الأفريقية حاملين معهم دينهم وتجارتهم ولغتهم وثقافتهم وكونوا الجاليات المستقرة فى ساحل الزنج ومدغشقر وجزر القمر ، وامتد النشاط البحرى للعرب إلى الهند وسيلان والملايو وأندونسيا والصين حيث أقاموا مستعمرتهم القوية فى كانتون (جانفو) فى نصف القرن الثامن .

وكانت شواطئ الخليج العربى وموانيه ومدنه الساحلية ، هى مراكز انطلاق الأساطيل العربية ، وخاصة فى عصر الدولة العباسية التى ولت وجهها نحو آسيا ، فانتقل مركز الحكم والتجارة إلى بغداد والبصرة . وكان ملاحو الخليج من أبناء عدن وعمان والبحرين وحضر موت وسيراف ، قد مهدوا لذلك فى أعقاب استقرار الإسلام بالجزيرة العربية فتولوا قيادة السفن بخبراتهم التاريخية قبل الإسلام وبعده . ففى الهند نزل الأسطول العمانى بمصب نهر السند وشواطئ الهند . ثم بعث الحجاج بن يوسف بحملة عام ٧١١ م تم خلالها استيلاء العرب على السند . ومضت أساطيلهم عبر الطريق البحرى منطلقة من البصرة وموانئ الخليج العربى مارة بسواحل آسيا الجنوبية حتى الصين .

وبلغت الحركة التجارية والعلمية والبحرية أوجها فى العصر العباسى . فقد حملت تلك السفن التجار والعلماء والرحالة العرب الذين كتبوا ملاحظاتهم ومعلوماتهم الواقعية عن تلك الأسفار والبحار والبلاد البعيدة . وشهد العصر العباسى أيضاً ، فى حكم المأمون بالقرن التاسع ، حركة ترجمة واسعة للمؤلفات اليونانية والفارسية والهندية فى علوم الرياضة والجغرافية والفلك ، ولعل أهمها كتاب « المجسطى » لبطليموس . وقد أسهمت هذه الترجمات فى إثراء العقل العربى بما استوعبه منها وما صححه فى ضوء معلوماته الواقعية المستقاة من تلك الرحلات والأسفار البحرية . ومن ثم قدم التجار والعلماء والرحالة والملاحون العرب إبداعاتهم ومؤلفاتهم واختراعاتهم الجغرافية والبحرية المتمثلة فى قصص التجار العرب . مثل التجار

سليمان وابن وهب وأبو زيد السيرافى ، وفى مؤلفات الأدب الشعبى كحكايات السندباد وكتب عجائب المخلوقات ، وفى كتب الرحالة والجغرافيين العرب ابن خرداذبة والخوارزمى والمقدسى والبيرونى والإدريسى والقزوينى حتى أعظم أنموذج للرحالة العرب ابن بطوطة ، وفى المؤلفات الملاحية لأحمد بن ماجد ومدرسة المرشدات البحرية . وسنتناول أهم نماذجها بالتفصيل فى الفصول القادمة من هذا الكتاب . ونكتفى بأن نشير هنا إلى الإضافات العربية فى مجال الملاحة وعالم البحار ، وهى إضافات شهد بها علماء الشرق والغرب . فكر تشكوفسكى يقول إن الاكتشافات البحرية العربية فى أواخر القرن الخامس عشر تمت بفضل العرب وأنه « عندما وضع فرامورو مصوره الجغرافى فى عام ١٤٥٧ ذكر أن ملاحاً عربيًا أبحر سنة ١٤٢٠ من المحيط الهندى حول القارة الإفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطى ، وقد أبصر فاسكودى جاما فى ١٤٩٧ - ١٤٩٨ سفنا عربية إلى الشمال من موزمبيق تحمل البوصلة وخارطات بحرية ، وهو يذكر ذلك حرفيًا بقوله : « ويحمل الربابنة بوصلات لتوجيه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية » ، وعلى إحدى هذه السفن وجد فاسكودى جاما مخطوطات عربية بعث بها إلى الملك أمانويل . « أما مواطنه الشهير البوكرك فإنه يدين بفتوحاته فى منطقة عمان والخليج الفارسى ليس بالقليل إلى خارطة بحرية من عمل ربان عربى يدعى عمر . وكان وقوع الملاحين العرب فى الأمر سببًا أساسيًا فى تحقيق البرتغاليين لاكتشافاتهم البحرية اعتمادًا على خرائطهم وأجهزتهم واكتشافاتهم البحرية »[١٧] .

كما أكد العالم الأمريكى « جيمس وستفال تومسون » ، فى مجال حديثه عن عصر الكشوف البرية والبحرية الأوربية « أن الريادة والكشف الأوربيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر يدينان ديْناً لا يقدر إلى أعمال الريادة العربية ورسم الخرائط والعلوم العربية فى العصور الوسيطة » .. وقال تومسون إن العرب استوعبوا العلوم الأوربية المترجمة وصححوها وانطلقوا منها إلى آماد أبعد وآفاق أرحب ، وأن ما طرأ من التحسن الكبير على بناء السفن « يرجع إلى أن العرب لم يحافظوا فحسب على معارف اليونانيين العلمية ، ولكنهم وسعوها وصححوها » . وقال إنهم حقا ترجموا بطليموس فى عصر المأمون ، غير أنهم تفوقوا عليه . وضرب مثلا لذلك العالم أبو الحسن الفلكى ، وقال إنه « تفوق كثيرًا على بطليموس فى دقة تقديراته ، وأكبر خطأ له فى تقدير خط الطول هو أربع درجات واثنتا عشرة دقيقة ، فى حين

(١٧) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، حـ ٢ ، ص ٥٦٣ .

يقدر الخطأ عند بطليموس بثمانى عشرة درجة ، كما أن تقديره طول البحر المتوسط كان صحيحًا لا يتجاوز الخطأ فيه ٥٢ دقيقة . أما بطليموس فقد أخطأ فى ١٩ درجة ».وأوضح تومسون أن سيادة الدولة الإسلامية « من الأندلس إلى كانتون » وضعت لدى الجغرافيين العرب مراجع لا مثيل لها لدى سواهم فى العصور الوسطى ، « ففى المكان الأول كان لديهم سجلات البحارة (مرشد القباطنة) ومدونات الرحلات ومذكرات المغازى وما كتبه التجار والحجاج ، كما أنهم استمدوا الكثير من المصادر المصرية والقبطية واليونانية والفارسية . وقد اعتمد الملاحون أنفسهم على تراث الحضارات السابقة فى معارفهم الملاحية »[١٨] .

لقد فتحت الرحلات البحرية آفاق العرب على الحضارات الأخرى ، فتأثروا بها وأثروا فيها ، ووضعوا علوم الآخرين وثقافاتهم موضع النقد والتصحيح فى ضوء تجاربهم العلمية والملاحية . هكذا أضاف العرب إلى علم البحر ، الخرائط البحرية والمرشدات الملاحية للطرق الملاحية والبوصلة البحرية والأسطرلاب العربى وربع الدائرة . وكانت إضافاتهم لبعض الآلات البحرية المنقولة عن غيرهم فى مجال إخضاعها لنتائج تجاربهم الملاحية العملية فى البحار .

ولعل أهم هذه الإضافات البحرية العربية ، التى فاجأت المكتشف البحرى البرتغالى فاسكودى جاما ، صناعة السفن الكبيرة ، ومرشدات الطرق والخرائط الملاحية والخبرة بمجارى المياه ومعوقات الملاحة وقياس اقتراب الشواطئ ، واستخدامهم للأسطرلاب ، آلة قياس الشمس وارتفاعات النجوم التى برع العرب فى صنعها واستعمالها من مواقع ثابتة فى الموانئ والشواطئ ، وأدخلوا عليها بعض التعديلات . « وبخلاف الأسطرلاب فقد عرف العرب أيضاً ربع الدائرة (المعروفة الآن باسم الكوادرانت) وهى آلة تمثل قوسًا قدره ٩٠ درجة من الأسطرلاب وتقيس ارتفاع الأجرام فوق الأفق هى الأخرى عن طريق قياس زاوية الظل أيضاً . ومن ربع الدائرة عرف الأوربيون فى القرن السابع عشر سدس الدائرة أى آلة السدس المعروفة حاليا فى الملاحة ويعزى ابتكارها لإسحق نيوتن[١٩]،كما نقل العرب عن الصين البوصلة البحرية والإبرة المغناطيسية ، واستعملوهما فى الملاحة البحرية فى وقت معاصر

---

(١٨) جيمس ويستفال تومسون ، حضارة عصر النهضة ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن زكى ، (ص ٤٠ - ٤٣) .

(١٩) الدكتور أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ٣٤ .

لاستعمال الصينيين لها على سفنهم فى البحر أيضاً ، وتميز العرب باستخداماتهم الدقيقة لتلك الخرائط والآلات الملاحية ، كما نقلوا علومهم وإنجازاتهم البحرية حيثما تنقلوا مع الفتح العربى الإسلامى من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلنطى . وعن طريقهم عرف البرتغاليون والأسبان بعلوم البحر وفنونه ، وليس مصادفة أن يكون هؤلاء هم رواد الكشوف البحرية الأوربية . وتدل قصة إرشاد أحمد بن ماجد لسفينة فاسكودى جاما إلى طريق الهند ، على دور العرب فى تقدم الكشوف البحرية الأوربية ، وفضل البحارة العرب على الملاحة العالمية ، وسنأتى على ذكرها بتفصيل أكبر فى الفصل الخامس الخاص بأحمد بن ماجد وأدب المرشدات البحرية .

ومن الإنجازات العربية الهامة فى عالم البحر ، صناعتهم للسفن ، التى تفرد بها أبناء الخليج العربى ، بسبب الموقع الجغرافى الفريد للخليج كممر بحرى للتجارة العالمية بين الشرق والغرب والطبيعة الصحراوية الفقيرة المحيطة بالخليج ، بحيث صار البحر هو مجال مغامرتهم فى سبيل حياة أفضل ، سواء فى صيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ أو فى التجارة عبر البحار والمحيطات . لذلك ركبوا السفن الصغيرة والكبيرة المارة وساعدوها بالقوين والمياه وعملوا عليها كبحارة ، فقد كانت شواطئهم ، سواء فى عدن أو فى عمان أو غيرهما ، ملجأ لسفن الفرس والصين والهند . ونقل عرب الخليج أسرار صناعة السفن من مصر والهند ، ولكنهم طبقوا خبراتهم الملاحية بالطرق البحرية والسفن فى البحار الجنوبية ومعوقات الملاحة من شعاب مرجانية خطرة على قيعان السفن . وتغلبوا على الطبيعة الصحراوية لبلادهم بنقل الأخشاب من الهند وشرق إفريقيا واستبدلوها بالتمر واللؤلؤ . وبدءوا بصنع المراكب الشراعية الصغيرة « الداو » ، ثم قوارب صيد الأسماك ومراكب الغوص على اللؤلؤ حتى صنعوا السفن التجارية الضخمة عابرة المحيطات والأساطيل البحرية الكبرى . وفى البداية كان العرب يصنعون سفنهم بدون استخدام مسامير حديدية لاعتقادهم بأن الشعاب المرجانية التى كانت ترتطم بها السفن فى البحر الأحمر هى أحجار مغناطيسية تجذب إليها الحديد الموجود فى مسامير السفن ولا تتركها حتى تحطمها ، فكانوا يستخدمون الحبال فى ربط ألواح السفن ثم يدهنونها بزيت السمك لحمايتها من رطوبة الماء . ثم صاروا يستخدمون المسامير فى تثبيت ألواح السفن « ويغرزون الخيوط القطنية فى الثقوب بين الألواح ويدهنونها بزيت السمك (الصل) لتكوين طبقة عازلة تمنع تأثر الخشب بالماء » وكانوا يقيمون حاجزًا صخريًّا بين ماء البحر والسفينة ، حتى إذا ما تم صنعها « تجهيزها وإمدادها بالأشرعة والحبال والمعدات الأخرى » ، يزال الحاجز الصخرى ، و« تسحب

السفينة إلى مياه الخليج فى احتفال تدشين »[٢٠] وظلت صناعة السفن العربية تتقدم حتى أقام العرب ترساناتهم البحرية الضخمة ، وملأت سفنهم الكبيرة بالآلاف بحار العالم ومحيطاته .

وغنى عن البيان فى مجال الحرب البحرية ، ما قام به أسطول صلاح الدين العربى من فتح لمدن فلسطين ولبنان الساحلية حيفا وصيدا وبيروت وغيرها من المدن الساحلية والداخلية حتى أتم تحرير القدس من أيدى الصليبيين . وتصدت الأساطيل العربية لأساطيل الصليبيين فى معارك دمياط والمنصورة البحرية فى منتصف القرن السابع الهجرى ، وهى المعارك التى حقق فيها الأسطول العربى نصراً حاسمًا اقترن بأسر لويس التاسع ، ملك فرنسا وقائد الصليبيين ، وسجنه فى دار ابن لقمان بالمنصورة وغير ذلك من الحروب البحرية العربية .

هذه عمومًا وإجمالا ، الملامح الرئيسية لدور العرب فى البحر ، قصدنا بعرضها فى هذا الفصل إبراز الدور الحضارى الذى أسهم به العرب ، عبر البحار والمحيطات فى الحضارة الإنسانية . وفى الفصول التالية من الكتاب سنتابع ، بتفصيل أكبر ، رحلة العرب فى عالم البحار والمحيطات ، كما عبرت عنها فنون أدب البحر العربى . ونبدأ فى الفصل القادم بدراسة أدب البحر فى الشعر الجاهلى باعتباره فن العربية الأول ، والمصدر الرئيسى لدراسة حياة العرب القدماء فى العصر الجاهلى ، والأنموذج الأول فى أدب البحر العربى .

---

(٢٠) علاء محمود مدنى ، صناعة السفن والمراكب التقليدية فى الخليج العربى ، مجلة « التراث الشعبى » (العراقية) ، العدد السابع - السنة التاسعة ، يوليو (تموز) ١٩٧٨ .